مؤلف الأستاذ أوسكار هيلكى

حدود التاريخ الأوربى وأقسامه

Halecki (Oscar) : European Histo y.

هذا المؤلف سفر علمى جليل جاد به الأستاذ هيلكى المؤرخ البولونى العلامة ، وعالج فيه — بما تهيأ له من إلمام شامل واطلاع واسع — مسائل قد تبدو للكثيرين فى المرتبة الثانية من الأهمية . غير أن جميع من تناقلوا الفكر اليونانى القديم ، والثقافة اليونانية القديمة، يعلمون أن لا وجود للحقائق المطلقة فى عالم الزمن والمدى ، وأنها إنما توجد فى عالم القيم وحده ، وما جاء تقسيم التاريخ إلى أدوار وأجزاء ينفصل بعضها عن بعض إلا على سبيل التجاوز المؤقت، مراعاة للوهن البشرى ومجاراة لآفاق العقل المحدودة . وكل مؤرخ مهما هان شأنه — إذا شاء أن يحاضر فى التاريخ الحديث — يجد نفسه مضطراً أن يرجع فى بعض الإيجاز إلى عهود سابقة ، وحتى فى الدراسة المقصورة على تاريخ منطقة محدودة جغرافياً بأضيق الحدود لابد من الإشارة إلى الأقطار والمؤثرات غير الأوربية .

وإذا ما تقدم الأستاذ هيلكى بأقوى الحجج وأقطع البراهين، ونادى بتغيير فى تحديد التواريخ والأقاليم الجغرافية، فإنا لن نعدم أساتذة آخرين يختارون للتواريخ والأقاليم حدوداً أخرى . ومرجع ذلك أن التاريخ دراسة شخصية وإبداع ذاتى ، بل هو رأى شخص واحد فى الماضى، ضيق كل الضيق ، ورأيه هذا انتقائى محدد وشخصى محض .

وكل هذا واضح فى ذهن الأستاذ هيلكى، كما هو واضح فى ذهن القارىء . فما هدفه إذن ؟ إنه يعنى أول ما يعنى بتوكيد وحدة التاريخ الأوربى، وينزع على الأخص إلى إدماج تاريخ أوربا الشرقية فى تيار التقدم الغربى ، وقد تأثر إلى حد بعيد بالأستاذ آرنولد توينبى، فأخذ عن مؤلفه « دراسة التاريخ »

فكرة أن ميدان الحضارات أصلح للبحث التاريخي من ميدان الدول القومية ، غير أنه يبغض التلويح بأن عالم المسيحية الأرثوذكسية يختلف اختلافا جوهريا عن عالم التراث الروماني . وهو يذهب في تأييد وجهات نظره إلى الإكثار من المقتبسات من المؤلفات التاريخية التي أنتجتها أوربا الشرقية ، ويسترعي انتباه الناطقين بالإنجليزية إلى عدد كبير من المؤرخين الغير المعروفين لدى هؤلاء ، لأن مؤلفاتهم الأصلية قد نشرت في مجلة أو دورية صقلبية . ومعلومات الأستاذ هيلكي لا تشوبها شائبة من التعصب ، ومراجعه التي يعتمد عليها لا يصبو أي مؤرخ إلى أكمل أو أوفى منها ، وهو كجميع أهل شرقي أوربا يتحمس أكثر ما يتحمس للعصر الصليبي ، حين وقع عبء الدفاع عن أوربا على كاهل الشعوب الصقلبية ، وسيقابل المصريون بالارتياح إشاراته في مؤلفه إلى آراء الدكتور عزيز سوريال عطيه . ويعتقد الأستاذ هيلكي أن هناك كثيرا من أوجه الشبه بين ذلك العصر والأحوال التي تمر بنا في عصرنا هذا ، حين يطلب إلى أوربا الشرقية أن تقف مرة أخرى في الصف الأول من صفوف الدفاع عن قيم الحضارة الغربية ضد اجتياح أسيوي جديد . ومن الطبيعي أن نراه يرثي لحال الشعوب الصقلبية ، وخاصة مواطنيه من البولونيين ، لما يعانونه من آلام وما يصيبهم من محن في أثناء تلك الحرب الضروس .

إن كل خسارة تتمخض على الدوام عن كسب ما ، فقد جدد سقوط القسطنطينية الاهتمام بأدب اليونان والثقافة اليونانية ، وكذلك أدى انهيار بعض الدول الأوربية أمام نظم الحكم المطلق إلى تشتيت كثير من العلماء وتفرقهم في الأرض ، ليوجهوا أنظار العالم إلى حقائق وعصور قلما التفت الناس إليها من قبل . وقد كان شرق البحر المتوسط مدركا على الدوام شأن الشعوب الصقلبية ، أما جماعة الحلف الأطلنطي الجديد فقد تجاهلتهم عامدة . وقد عني الأستاذ هيلكي — في إجابته عن السؤال « ما هي أوربا ؟ » بإقامة التوازن ومعادلة الكفتين ، وعلى ذلك فكتابه هذا كسب علمي له خطره تفيد منه فلسفة التاريخ وكتابة التاريخ ، وهو كتاب يهدف إلى أن يقدم لنا صورة جديدة — أو إطارا جديدا — تقع عليه أبصارنا ، فتدرك مكان اتجاهاتنا الضيقة الأفق مما في هذا الإطار من اتجاهات .

وسواء أكان قد أجاب عما أثار من أسئلة إجابة شافية ، أم لم يجب، فإن الذى لا شك فيه أنه زودنا بمعلومات وافية ونصائح غالية، وأبرز مسائل لا حصر لها جديرة فى ذاتها بالتأمل والاهتمام .

جيمس ج. أخموتى

ترجمة أحمد حلمى على